
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

# علاقات المسلمين باليهود في مغرب القرنين 18 و 19
# (نموذج يهود تطوان)

عمر لمغيبشي*

## مقدمة:

عرفت دراسة علاقات اليهود، ووضعهم داخل المجتمع المغربي تضاربا في الرؤى بين الكتاب؛ بين من يرى أنه لم تكن هناك علاقات تعايش بين الملتين (واعتبروا أن اليهود عاشوا المعاناة والذل والهوان، وأنهم كانوا يرزحون تحت ظل الاستعباد، وبأنهم لم يجدوا حريتهم إلا بعد احتلال المغرب وبروز الحمايات القنصلية)، وبين من يقر بوجودها. وقد تضمنت الوثائق والمراسلات الدبلوماسية التي أزيح الستار عنها في أرشيفات الدول الغربية، خصوصا بفرنسا، وإسبانيا، وبريطانيا، والولايات المتحدة، وهولندا، وكذلك الأرشيفات الصهيونية بالقدس، وأرشيفات الوكالة اليهودية، والرابطة الإسرائيلية العالمية، سيلا من التحاليل التي تضرب في العمق أي تعايش بين الملتين.

ومما زاد في تعميق هوة البحث في هذا المضمار، إغراق الدراسات التاريخية المنجزة من قبل باحثين أجانب ممن قدر لهم الحضور إلى المغرب، إما كأسرى، أو في بعثات، أو مع مواكب دبلوماسية[1]، إلى جانب بعض المؤرخين، والإخباريين المغاربة في التعاطي لأوضاع يهود المغرب، وعلاقاتهم الداخلية والخارجية مع جيرانهم المسلمين في وصف هذه العلاقات بالسلبية، وتضمين أخبارهم بعبارات وشتائم

---

* باحث في التاريخ

1- من بين هذه الكتب: كتاب Lancelot Addison تحت عنوان (The Present state of the Jews) سنة 1675م، وهو أول كتاب خصص كاملا لدراسة حياة يهود المغرب، وكتاب Gemain Mouette الذي يعتبر ثاني كتاب تحدث عن وضع يهود المغرب، والذي تم أسره وهو في 19 من عمره سنة 1670م، وكذلك السفير الفرنسي Francois Pidou de Saint-Olon الذي أرسله لويس 14 لدراسة المغرب، وكتب (Relation de l'Empire du Maroc) سنة 1695م. بالإضافة إلى كتاب المؤرخ البريطاني جون وندوس( Journey to Mequinez, the Residence of the present Emperor of Fez and Morocco ) الذي نشر سنة 1721م وكتاب قنصل فرنسا بالمغرب لويس شينيي ( Recherches historiques sur les maures et l'histoire de l'empire du Maroc)، وما كتبه القنصل الدنماركي Georg host.

دينية[2] ضمن سياقات عامة وأحيانا منحازة. ومن حسن حظ هذه الكتابات أنها ليست عامة، بدليل وجود كتابات أخرى أجنبية وعربية تتحدث عن وجود تعايش بين الملتين بخلاف الأولى.

والحقيقة أن علاقات اليهود مع المسلمين كانت عموما غير مستقرة، وقد عرفت مدا وجزرا نتيجة طبيعة الحكام المتعاقبين على السلطة من جهة، ومواقف الطائفة من الصراعات الناشئة بين المسلمين فيما بينهم والدول الأجنبية من جهة أخرى، بالإضافة إلى سلوكاتهم، ومدى احترامهم لقانون أهل الذمة وباقي القوانين الجاري بها العمل. أما علاقاتهم فيما بينهم فقد تميزت عموما بسيادة روح التضامن الديني والعقائدي، ولعل علاقاتهم مع يهود فاس خير دليل على ذلك[3].

وتجاوزا لهذه الاعتبارات البحتية التي تحكمت في تحديد الوجه الحقيقي للنمط العلائقي الجامع بين المسلمين واليهود، سنقوم باستعراض كل الآراء على اختلاف مشاربها وتوجهاتها ونواياها وانتماءاتها الإيديولوجية على أمل صياغة رؤية مكتملة، وسنقوم في مرحلة أولى بالحديث عن العلاقات البينية بين اليهود فيما بينهم قبل أن ننتقل للحديث عن علاقات اليهود مع المسلمين سكانا وسلطة.

### 1.العلاقات البينية داخل الملاح

حاول اليهود قدر المستطاع إبعاد المسلمين عن التدخل في شؤونهم الداخلية، سواء الدينية أو القضائية أو التعليمية، مشكلين داخل الوسط الذي احتواها (الملاح) مدينة صغيرة داخل مدينة كبيرة[4]. وكانت العلاقة بين اليهود في بداياتها الأولى تعرف بعض التوتر، ذلك أن وفود أعداد كبيرة من اليهود "الطوشابيم"، خاصة المطرودين

---

2- ساعدت هذه المواقف المنحازة إلى جانب واحد في تكريس شرخ في معتقدات الطرفين، وعملت على خلق موقفين: الأول يذهب إلى استحضار الماضي التاريخي المبني على التوجس والخيفة والحيطة في وصف علاقة اليهود بجيرانهم المسلمين سكانا وسلطة، والثاني إلى توظيف الخطاب الطوباوي من خلال تقديم صورة موغلة في المثالية لعلاقة الطرفين.

3-**Mark R. Cohen**, Sociability and the concept of Galut in jewish-muslim relations in the Middle Ages, ***in*** Judaism and Islam: Boundaries, Communications, and Interaction: Essays in honor of William M. Brinner, edited by William M. Brinner, Benjamin H. Hary, John Lewis Hayes, Fred Astren Leiden Brill 2000, p.37.

4- يعود مفهوم "الدولة داخل الدولة" إلى فترة حكم الرومان:

**Emily Gottreich**, Jewish and Muslim Space in Morocco's Red City, Indiana University Press, 2007, p.12:"The Jews met a fate not unlike that of their roman coreligionists when they too were transformed to their own "**city wihin a city**".

من الأندلس في نهاية القرن 15م وبداية القرن 16م بسبب نمط حياة هؤلاء وفكرهم، مما سيؤدي إلى توتر في العلاقات بين الفئتين حول عدد من القضايا خاصة الدينية والاجتماعية منها (طقوس العبادة وبعض العادات والتقاليد). إلا أن هذا التوتر سرعان ما سيختفي، وستنقشع معه أوجه تعايش متكامل الملامح من حيث الفكر والمرجع.

ورغم الانصهار التدريجي بين الفئتين، استمرت بعض من الصراعات والنزاعات ذات الطابع الاجتماعي والاقتصادي. ففيما يخص التوترات الاجتماعية، فقد تميزت ببروز عدة مشاكل، لعل أهمها كان على مستوى العلاقات الزوجية داخل الملاح، إذ تميزت هذه العلاقات بعدم الاستقرار، نتيجة انتشار ظاهرة الطلاق بين الأسر اليهودية خاصة في نهاية ق.19م بعد موجات الهجرة التي سيعرفها اليهود نحو دول أوروبا وأمريكا اللاتينية والجزائر وجبل طارق. كما استمرت بعض العادات غير المرغوب فيها بين بعض العائلات، كعادة الزواج المبكر وتزويج الفتيات قبل سن البلوغ[5].

وقد أدى التفاوت الطبقي بين أبناء الحي الواحد من أحياء الملاح، نتيجة التفاوت الفاحش في الثروة بين كبار التجار، وعامة اليهود من توتر العلاقات البينية، أدت في عدة أحيان إلى نشوب صراعات بين أفراد الطائفة. وأمام ارتفاع هذه الفوارق الاجتماعية والاقتصادية، وتفشي ظاهرة الطلاق، والفقر والهجرة، لم يكن للأعيان والعامة داخل الملاح من وسيلة سوى الاتحاد للتقليل من تصدع العلاقات البين يهودية وتقوية لحمة الطائفة داخليا وخارجيا، فأنشئت بذلك مؤسسات خيرية كانت مواردها تأتي من ضريبة اللحم "كاشير"، ومن الصدقات الأسبوعية، والتبرعات نصف السنوية "ندابوت" التي تؤديها العائلات الثرية، وكذلك من مداخيل الأكرية العقارية التي تنازل عن ريعها أشخاص ميسورون لفائدة الجماعة. وقد توفرت المؤسسة الخيرية على صندوق للفقراء "عنيم"، وحظي المكلف به بتقدير الأوساط اليهودية المحلية، وتمتع بتأثير معنوي بين أفراد الملة، فهو الذي كان يقوم بمساعدة أعيانهم بتحديد مقدار مساهمة كل فرد في الجزية. ويستفيد

---

5- كذلك شوراكي إلى أن ظاهرة الطلاق كانت مرتفعة في كل من صفرو وفاس ومراكش مقارنة مع أكادير وموگادور وسلا وتطوان. عن الموضوع انظر:

**André Chouraqui**, Histoire des juifs de l'Afrique du nord, Hachette, 1987, p.191.

من ذلك الصندوق المسنون، واليتامى، والأرامل، وعابرو السبيل من اليهود، فيما يدفع مقدار قليل منه لخيرية القدس. كما شمل التكافل الملي بين أفراد الطائفة حتى قضية الموتى، حيث تكفلت هذه المؤسسة بمراسيم الدفن كلها على نفقتها الخاصة في موجة الأمراض والأوبئة التي ضربت المدينة كالطاعون والكوليرا[6].

ومن بين مظاهر هذا التكافل أيضا إحداث لجان خيرية لمساعدة اليهود ليس فقط الموجودين داخل الملاح بل حتى خارجه. ولعل خير دليل على ذلك، ما قامت به طائفة يهود تطوان من مجهودات لإنشاء خيرية لصالح اللاجئين اليهود بجبل طارق سنة 1859م تحت رئاسة "كنسينو" (Cansino) نتيجة معاناة إخوانهم بها. فقد قام اليهود بالبحث عن مصادر لتمويل إخوانهم وطلبوا يد العون من "روتشيلد"، و"موشي مونتيفيوري"، وعائلة "كولدسميست (Goldsmistt)، و"بيريري" (Peréire)، و"كريميو" (Crémieux) لمساعدة خمسة آلاف لاجيء[7]، وتحركت الجاليات اليهودية في الشتات وتطوان لنصرة إخوانهم. لكن كل المحاولات لم تكن كافية لتحد من معاناة اليهود هناك، فقد وجد هؤلاء أنفسهم أمام وضع مزر للغاية نتيجة قلة المساكن والأكل وأدوات التطبيب، وحاول الحاكم "كودرنكتون" تشغيل اليهود مقابل أجر لكن هذه المحاولة كذلك فشلت، مما اضطر معه اليهود إلى العودة إلى منازلهم، أو التوجه إلى دول أخرى، كإسبانيا، والبرتغال، وفرنسا، وبصفة خاصة إلى الجزائر[8].

ومنذ زيارة الثري اليهودي "البارون روتشيلد" لمدينة تطوان في منتصف ق.19م، أحدثت الطائفة صندوقا آخر خصصت مداخليه لإعانة المرضى "خوليم"، يقوم المكلف به بتوزيع المساعدات التي يتلقاها من الجماعة على المرضى، وتشمل بعض النقود والمواد الغذائية والأدوية. وقام الاتحاد الإسرائيلي العالمي، الذي كان

---

6-**Levy Simon**, Essais d'Histoire et de Civilisation Judéo-marocaines, Centre Tarik Tarik Ibn Zyad, Novembre 2001, p.108.

7-**Ana María López Álvarez**, La comunidad judía de Tetuán. Ed. Ministerio de Educación, Cultura y deporte, Dirección General de Bellas Artes y Bienes Culturales, Subdirección General de Museos Estatales, 1 nov. 2003, p.36.

8-**Juan Bautista Vilar**, Los españoles en la Argelia francesa (1830-1914), Murcia, 1989, p.337.

مقره بباريس، بإرسال بعض الأطباء إلى ملاح تطوان، ومنهم النمساوي "شمايدل"، والفرنسي "موريير"[9].

ولم يقتصر العمل الخيري على الجانب الاجتماعي المحض داخل الملاح، بل شمل أيضا الميدان التعليمي، الذي كان مرتبطا ارتباطا وثيقا بالدين، فكان ينفق قسط من الصندوق الخيري على التعليم الأولي، وقسط آخر على التعليم الديني، وكان أغلب تلامذة مؤسسة "تلمود توراة" من الفقراء واليتامى. وأحدث "الاتحاد" في إطار التكافل بين الطوائف اليهودية العالمية أول مدرسة عصرية للأطفال اليهود بتطوان سنة 1862م ، بمساهمة صندوق "الاتحاد"، والصندوق المحلي للطائفة. وقد شمل الإنفاق طعام ولباس التلاميذ الفقراء، وأجور المعلمين والأطر الإدارية، وتغطية نفقات تنقلهم وكرائهم، بل وحتى نفقات مستلزمات الدراسة من أدوات دراسية وتجهيز[10].

ولم يقف التضامن والتكافل الملي عند هذا الحد، بل امتد إلى المجال التجاري والمالي، بحيث أعلن العديد من التجار اليهود بتطوان عن تضامنهم المطلق مع بعضهم البعض أثناء تعرض أحدهم لأزمة اقتصادية، أو ضائقة مالية. وقد وقفنا على عدة رسائل تؤكد هذا التضامن، منها الرسالة التي بعثها "المولى عبد الرحمان" إلى "القائد أشعاش" في نهاية شهر شوال 1260هـ/ 1844م، والتي تتعلق بأحد التجار اليهود بطنجة يدعى "المعلوف". جاء فيها أن هذا الأخير أراد تحمل ما بذمة شريكه اليهودي "شلومو ليفي/اللاوي" من دين للمرسى، مصرحا بنيته الدفع بالنيابة عنه مبلغ الدين؛ وقدره خمسمائة مثقال في كل شهر من ثمانية عشر ألف ريال وزيادة[11].

---

9- **شهبر**، طائفة يهود تطوان خلال القرنين *16* و *17*، تطوان خلال القرنين *16* و *17*، ضمن أعمال ندوة تطوان خلال القرنين 16 و 17 (أيام 9-10-11 مارس 1995)، مطبعة يوسف الحداد إخوان ش.م.م، ضمن منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان، صص. 210-211.، ص. 99.

10- **نفسه**.

11- **داود**، تاريخ تطوان م9، منشورات الخزانة الداودية،1998، ص.124.

وقد تجاوزت العلاقات اليهودية-اليهودية حدود الملاح التطواني، وباقي الملاحات بالمغرب، وجبل طارق، لتشمل باقي طوائف اليهود في الشتات[12]. ومن بين النماذج الدالة على حجم هذه العلاقات نذكر:

- العلاقات التي ربطت يهود المدينة بيهود فلسطين، وهو ما تؤكده المراسلات اليهودية[13].

- مساهمة كل من يهود فاس وتطوان في دعم يهود الجزائر. ولقد لعب الربي التطواني "موسى ابن عزرا" دورا مهما في هذه العملية، حيث قام بجمع مساعدات مادية من طوائف المغرب خاصة تطوان وفاس وتوجه بها على متن مركب، إلا أن كل الأموال ضاعت نتيجة احتراق المركب الذي كان يقل الموكب وهو في طريقه إلى الجزائر[14].

أدى هذا التضامن الملي إلى إشادة العديد من الرحالة الذين زاروا ملاح تطوان بالروح الجماعية لليهود وبالتعاون والتكافل الملي، منهم "الكولونيل كيتينج" (M. Keating، و"الكابتين بوكليرك" (C. Beauclerk)، والطبيب "لومپريير" ( W. Lemprière)، و"السير أرتور كاپيل" (Sir. Arthur Capell)[15].

## 2. العلاقات مع المسلمين

اقتضت وضعية "أهل الذمة" منح اليهود الأمان على حياتهم وأموالهم، وعدم استرقاقهم، وحمايتهم، والدفاع عنهم من الاعتداء، وذلك مقابل الجزية، على شرط ألا تؤخذ إلا من القادر على القتال منهم[16]. وشكل التعايش بين اليهود

12 -**Sophia Menache**, Communication in the Jewish Diaspora: A survey, *in* Communication in the Jewish Diaspora: The pre-modern world, **Sophia Menache**, E.J. Brill, Leiden, The Netherlands, 1996, p.p 15-59.

13 -**Chouraqui**, l'Histoire....op.cit, p.114.

14 -**Jane S. Gerber**, Jewish society in Fez (1450-1700): Studies in communal and economic life, E. J. Brill, Leiden, the Netherlands, 1980, p.p 75-76.

15-**Juan Bautista Vilar**, Tetuán en el resurgimiento judío contemporáneo (1850-1870) aproximación a la historia del Judaísmo Norteafricano, Biblioteca popular sefardí, volumen n°2, Ediciones de la asociación israelita de Venezuela y del centro de estudios sefardíes de Caracas, 1985, p. 37.

16- إن حقيقة التسامح الديني الذي كرسه قانون الذمة لليهود يكررها حتى اليهود أنفسهم عند مقارنة تعامل المسلمين مع اليهود بمعاملة النصارى. ففي الوقت الذي كانت الدول المسيحية تسلب حقوق اليهود الدينية والعقدية كانت الدول الإسلامية تعطي لليهود كافة هذه الحقوق. وقد تحدث "أندري شوراكي" عن هذه الحقيقة عند مقارنته بين يهود هنغاريا ويهود الدول الإسلامية خلال ق.19م، الذين بلغ عددهم في نهاية عام 1869م 72.000 يهودي:

والمسلمين حقيقة تاريخية استنادا إلى الدين الإسلامي الذي لم يمنع التعايش مع اليهود والتعامل معهم. وكانت علاقات اليهود بالمسلمين قائمة بشكل من الأشكال على مبادئ دينية وفق قانون "أهل الذمة"، وهو وضع استفادت منه الطائفة للانعزال قدر الإمكان عن جيرانها المسلمين، وعملت من خلاله على إرساء الحكم الذاتي داخل فضائها، وبالتالي الحفاظ على ثوابتها الدينية والثقافية والاجتماعية والاستمرار في التقيد بها. لكن هذا الوضع لم يمنع الجانبين من نسج علاقات اقتصادية، وأحيانا اجتماعية بحكم عامل القرب والجغرافيا والظروف التي عرفتها المدينة. وإذا كانت العلاقات بين الملتين لم تكن كبيرة مقارنة مع الملة الواحدة، فقد بينت الوثائق وواقع الحياة اليومية بالمدينة اتساعها بشكل أكبر في المجال التجاري في إطار التعاملات اليومية، كما هو الحال بين عائلة "الرزيني" وعائلة الذمي "بن عليل". أما قضايا الأحوال الشخصية فكانت منعدمة في المدينة، خاصة فيما يتعلق بالزواج. وكانت العلاقات بين الملتين تخضع للسلطات المحلية التي كانت تفرض أن تكون المعاملات التجارية والمدنية المكتوبة، والقضايا الجنائية من اختصاص المحاكم الإسلامية. لكن هذه العلاقات اختلفت من حيث الجهة المخاطبة (الساكنة المحلية من جهة والسلطات الحاكمة من جهة أخرى)، وهو ما سنراه بشكل مفصل فيما يلي.

### أ- علاقة يهود تطوان بالساكنة المحلية

عاش اليهود والمسلمون بالمغرب جنبا إلى جنب، خلافا لأطروحة الانعزال التام والانكماش على النفس التي روجت لها العديد من الكتابات خاصة الاستعمارية. ومن أهم مظاهر هذا التعايش السلمي والتسامح توزيع اليهود للفطير على المسلمين في عيد الفطير اليهودي[17]، وتقاسم "الرقاقة"[18]، وتهنئة المسلمين لليهود

---

"In the traditional Christian establishment the ghetto, from the legal point of view, was a no man's land. The jurists of Islam at least recognized the right of the Jew to his life and property, but the structure of Christendom prevented theologians from including such an indulgence in their legal code; the Jews of Europe were merely accepted and had no recourse to the law".

**André Chouraqui**, A man alone, Keter Publishing House, Ltd., Jerusalem, 1970, p.4.

17- **أحمد بن يحيى الونشريسي**، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقيا والأندلس والمغرب، ج 11، تحت إشراف محمد حجي، بيروت، دار المغرب الإسلامي، 1981م، صص.111-112.

18- **جون لوي مييج وامحمد بن عبود ونادية الرزيني**، تطوان الحاضرة الأندلسية المغربية، ترجمة مصطفى غطيس، ط1، 2002، صص.36-37؛ **أحمد الرهوني**، عمدة الراوين في تاريخ تطاوين، تحقيق جعفر ابن الحاج السلمي ج1، مطبعة الخليج

في عيد "الميمونة"، وزيارة الأولياء وتقديسهم كزيارة ضريح "إسحاق بن الوليد" من طرف مسلمي مدينة تطوان[19]، والعمل بالوقف على المنقطعين[20]، والصدقة يوم الخميس على غرار صدقة يوم الجمعة عند المسلمين، والاحتفال بالانتصارات التي يحققها المسلمون كعيد "پوريم المسيحيين" الذي احتقل به اليهود منذ عام 1578م[21]، وقيام اليهود بالنزاهة على غرار المسلمين، التي تسمى بالعبرية "مشتة"[22].

ولم تسلم العديد من الكتابات التاريخية الغربية، وحتى العربية من الانحياز لجهة واحدة دون أخرى، والتحافها ثوب التعصب واللاموضوعية بوصف العلاقات اليهودية بالمسلمين كونها كانت دائما تتسم بالتوتر والاضطراب، فقد تضمنت بعض الكتابات العربية هذا النهج، جراء انتهاج بعض اليهود لأساليب قائمة على إثارة النعرات وابتزاز المسلمين وإفساد أخلاق أبنائهم، وهذا ما دفع هؤلاء المؤرخين إلى وصم اليهود بصفات شنيعة كلما تعرضوا لذكر أفعالهم وتصرفاتهم. وكمثال على ذلك، ما يقول أحد المؤرخين المجهولين في وثيقة تاريخية حول مدينة تطوان: "...فاستغنت اليهود، ووجدوا الراحة والغنا مع الصبانيول، ولو أطلقوا لهم لصاروا يضربون المسلمين، لكن لما كان في اعتقادهم أن المسلمين راجعين إلى بلادهم، صاروا يصطنعون معهم، وفي الحقيقة هم شر خلق الرب"[23].

---

العربي، ط2، 2012، صص. 112-110: "الرقاقة هي نوع من الخبز يصنعه اليهود في عيد الفصح ويهدون منه لأحبائهم من المسلمين".

19- لعل أهم مثال على ذلك تقاسم مسلمو المدينة مع يهودها زيارة ضريح اسحاق بن الوليد.

**Issachar Ben-Ami**, Cultes des Saints et pèlerinages judéo-musulmans au Maroc, Editions Maisonneuve & Larose, Paris, 1990.

20 -**Levy**, Essais d'Histoire....op.cit, p.108.

21 -**Chouraqui**, Histoire....op.cit, p.131.

وهي السنة التي حاول فيها الإسبان احتلال المدينة بعد أن حاصروها لكنهم فشلوا، وهي كذلك السنة التي اندحرت فيها جيوش البرتغال وقتل فيها ملك البرتغال سباستيان في معركة الملوك الثلاثة، وأدت إلى الاحتفال سنويا بالانتصار في عيد كان يقام في الأول من أيلول.

22- **شهبر**، كتاب التواريخ: تأليف أخبار من عائلة ابن دنان الغرناطية الفاسية، ترجمة عن العبرية، منشورات جمعية تطاوين أسمير 2002، ص.46. "المشتة" أو النزاهة هي وليمة يقدم فيها الشراب والطيب ويوزع على الفقراء نظرا لعدم حدوث بلاء كان محققا.

23- **محمد بن تاويت**، وثيقة تاريخية عن تطوان، مجلة تطوان (مجلة الأبحاث المغربية الأندلسية)، ع1، 1956م، ص.41.

وبنفس الطريقة ينفي "الحسن الوزان" وجود أية علاقة جيدة بين اليهود والمسلمين، ويستعيض عنها بالتأكيد على طابع النفور والحقد المترسخ بين الطرفين[24]. وقد كرر "محمد داود" هذا الرأي استنادا على المراسلات المخزنية قائلا:"الأمثلة كثيرة في تاريخ بلادنا عن تلاعب اليهود أينما كانوا وحيثما وجدوا بالرغم من حرص سلاطين المغرب باستمرار على معاملتهم معاملة حسنة كباقي الرعايا المغاربة، وحالة اليهودي برينطي من الحالات التي تؤكد خطأ وضع الثقة في غير محلها"[25]. ويضيف بطريقة أكثر تعميما: "واليهود هم اليهود في كل زمان ومكان غش ودس وبهتان وخداع وتضليل وطغيان، والذي يثق بهم إما مغفل وإما مغرور وإما شيطان"[26].

وتسير في نفس المسار تقريبا غالبية الدراسات الغربية التي اهتمت بدراسة أوضاع اليهود بتطوان والمغرب، حيث حاولت في أكثر من موضع، إلغاء جسور التواصل الودية القائمة بين المسلمين واليهود، وإسقاط حالة الأوضاع المزرية التي عاشها اليهود بأوروبا في أحياء خاصة تفتقد إلى أبسط ضروريات العيش، وتجابه بعداء من قبل الأهالي المسيحيين على الواقع المغربي. ومن هذه الكتابات ما كتبه "مونغو پارك"، الذي تحامل على تاريخ تعايش الجارين المسلم واليهودي، مدعيا أنه لم تكن لليهود أحياؤهم الخاصة، وأنهم كانوا يعيشون في أحلك الظروف[27]. كما نحى "شارل ديديي" نحو "مونكو پارك" في وصفه لأوضاع يهود تطوان موغلا في تقديمهم على أنهم أقلية تعيش تحت وطأة الظلم وكثرة الضرائب، ملزمة بخلع الأحذية عشرين مرة في اليوم عند مرورها بأبواب المساجد والأضرحة، وممنوعة من ركوب الأحصنة[28]. وهناك العديد من الكتابات ذات التوجه الكولونيالي التي تبنت نفس الأفكار بغاية إحداث شرخ بين الجانبين لتستفيد منه في تحقيق أهدافها.

وعلى عكس الآراء السابقة، عرفت بعض الكتابات رأيا مخالفا حتى من داخل الباحثين اليهود أنفسهم، الذين أشادوا بسيادة روح التآخي والتلاحم الاجتماعي

---

24- **الحسن الوزان**، وصف افريقيا ج 1، تحقيق محمد حجي ومحمد الأخضر، طبعة الرباط 1980م، ص. 219.

25- **محمد داود**، تاريخ تطوان م8، المطبعة الملكية، الرباط، 1979م، ص.399.

26- **نفسه**، ص.373.

27 -**Mungo Park**, Voyage dans l'intérieur de l'Afrique pendant les années 1795-1797 (traduit de l'anglais par M. l'Abbé Du Voisin), Paris, Treuttel et Wurtz, 1800, p.p 33-34, et p.p 80-155.

28 -**Charles Didier**, Promenade au Maroc, Paris, A. Dupon, 1844, pp. 150-151.

والتسامح الديني إلا فيما نذر من الأحوال. فهذا الباحث "حاييم الزعفراني" يؤكد على طبيعة التعايش السلمي بين الطائفتين اليهودية والمسلمة غير المتكافئ سواء على المستوى الديني أو السياسي في غالب الأحيان، باستثناء بعض الفترات الحرجة عند غياب النظام وتفكك السلطة[29]، وهو رأي يتقاسمه كل من "لويس فوانو"، الذي تحدث عن أوجه الارتباط الصميمي بين الطرفين، و"أندريه شوراكي" الذي رفض الأخذ بمزاعم بعض الكتاب الأوربيين، وذهب إلى القول بأن يهود المغرب تأثروا بعادات أهل البلد وعملوا بها، وضرب العديد من الأمثلة على ذلك، ومنها التقارب الموجود بين "الهالاخا" والشريعة الإسلامية، والتبرك بالأسياد، والمناداة على الموتى لأغراض ربانية، واستعمال النار أثناء الاحتفال، والتفريق بين الزوجين الحديثي العهد قبل اتمام مراسيم الزواج، واحتفال المرأة في الغناء والرقص على الدفوف، وقراءة التعويذات يوم الجمعة مساء وفي اليوم الذي يسبق "كيپور"، واستعمال الرمال في التوضؤ في غياب الماء[30]. وهو الرأي نفسه الذي عبر عنه المؤرخ "داود قورقوز" بقوله: "إن توجه المسلمين نحو اليهود يتسم عموما بالتسامح، والتعصب ظاهرة استثنائية، ليست في صلب العلاقات الإسلامية اليهودية"[31].

والحقيقة أن العلاقات بين اليهود والساكنة المحلية اتسمت بالهدوء عموما، وكانت الاختلالات التي تطرأ على هذه العلاقات ترتبط، إما بسبب الأوضاع العامة التي كان يعرفه المشهد السياسي المغربي والمرتبط بحالات الفتن والاضطراب أثناء انتقال السلطة ووجود فراغ في الحكم، أو في حالة تحول اليهود إلى أهل شوكة وغلبة نتيجة الاستقواء بالخارج، أو أثناء تلاعبهم بأقدار التجار المسلمين. ولعل أهم ما عكر صفو هذه العلاقة ما حدث لليهود في عهد "المولى يزيد"[32]، ومع فتنة "عيسى الريفي"[33] بتطوان، والتي انتقلت شرارتها إلى باقي المدن المغربية، لتشهد

---

29- **حاييم الزعفراني**، ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب: تاريخ، ثقافة، دين، ط 1،الدار البيضاء، 1987م، ص.15.

30 -**Chouraqui**, Histoire....op.cit, pp.144-145.

31 - **محمد كنبيب**، عهد الملاح: مذكرات من التراث المغربي، ع 8 ، سنة 1986م، ص. 127.

32 -**Paul B. Fenton et David G. Littman**, L'exil au Maghreb: La condition juive sous l'Islam 1148-1912, Presses de l'Université Paris-Sorbonne, 2010, p.239.

33- اشتهر "الريفي" بعدائه لليهود، وزرع الرعب في صفوفهم بأحواز تطوان، وكان يقوم بعملياته رفقة مساعديه "لحسن أمطيل" و"المصمودي". وقد انتشر خبر "عيسى الريفي" ووصف بقاتل اليهود المحميين، ونسبت إليه تهمة قتل واحد وعشرين شخصا ما بين يهودي ومسلم في ظرف عام واحد فقط (عام 1867م). وذكر "محمد داود" أن دافع "الريفي" من

بدورها موجات من الاعتداءات على اليهود والمسلمين. ففي سنة 1867م قتل بآسفي لوحدها فقط سبعة عشر يهوديا، وأربعة عشر آخرون بالقصر الكبير، وقتل ثلاثة من المسلمين بضواحي طنجة فيما فر قتلتهم إلى العرائش، وقتل كذلك يهودي ومسلم بأحواز مكناس. وبلغ عدد القتلى من الجانب اليهودي، ومن المحميين سنة 1867م ثلاثة وأربعين نفسا.[34]

## ب- علاقة يهود تطوان بالسلطات الحاكمة (نموذج مدينة تطوان)

كفلت السلطات الحاكمة ليهود تطوان حرية المعتقد والأمن والحماية مقابل أداء ضريبة الجزية لخزينة الدولة واحترام المقدسات والإقرار ببعض القيود. إلا أن هذا العهد الذي بدأ مع سيدنا عمر لم يكن يحترم بالشكل المطلوب، بحيث عرفت هذه العلاقة -كما أسلفنا- تذبذبا ملحوظا، نتيجة طبيعة السلطان والحاكم والرعية، والظروف الاقتصادية والاجتماعية.

وقد كان السلطان وممثلوه لا يتدخلون في أي شيء من الشؤون الإدارية المرتبطة باختصاصات الطائفة اليهودية، وإنما يكتفون فقط بمسألة تعيين شيخ اليهود الذي يعتبر شخصية وجيهة ومحترمة تحظى بثقة السلطات المحلية، ويلعب دور الوسيط الرسمي بين السلطان وممثليه، وبين زعماء الطائفة اليهودية[35]. وكان المعيار الذي قامت عليه علاقة اليهود بالسلطة هو الجزية، ذلك أن يهود تطوان كانوا يؤدونها بشكل أو بآخر للأعيان والحكام[36].

---

ذلك إنما كان الانتقام من قتلة أخيه من اليهود الذين قاموا بتصفية أخيه جسديا بسبب وجود علاقة سرية بينه وبين إحدى اليهوديات. وقد شكلت فتنة عيسى الريفي فترة مهمة في تاريخ العلاقات الدبلوماسية المغربية والأوروبية، حيث أدى قتل مترجم نائب قنصل فرنسا اليهودي "موسى أزولاي"، و"إبراهيم پاريينطي" مترجم قنصل النمسا وهنغاريا "موردخاي شمايدل" أزمة في العلاقات الثنائية .(**Vilar**, Tetuán…op.cit, p.58)، حيث سارعت القوى الأوروبية بتنسيق مع "روتشيلد" و"مونتيفيوري" إلى السفر إلى المغرب والالتقاء بالسلطان، وتعيين "أحمد الخضر السلاوي" للقضاء على "الريفي" لكن هذا الأخير فشل. وفي 23 فبراير 1868م أضاف "الريفي" إلى قائمته يهوديين قتلهما على مقربة من المقبرة اليهودية بتطوان، وهو ما زاد من غضب "د. هاي"، الذي طلب من المخزن توجيه أوامر صارمة للقبض على القاتلين، ومنحهم مهلة شهر أو فرض ذعيرة على المخزن قدرت بمائتي ريال يوميا عن كل مدشر إلى حين تسليم القتلة أحياء أو أمواتا.

34- **بن الصغير**، المغرب وبريطانيا العظمى في ق.19م، ص.292 .

35 -**Abraham Isaac Laredo.**, Bereberes y hebreos en Marruecos. Sus Origines, según las leyendas, tradiciones y fuentes hebraicas antiguas. Introducción de Francisco Cantera Burgos, Madrid, 1954, p.208.

36 - يذهب گمبيطا (Gambetta) إلى القول بأن مبلغ الجزية بالمدينة بلغ 200 ألف پيسوس:

وإذا كانت العديد من الكتابات تشير إلى إرهاق كاهل يهود تطوان بالضرائب، فإنه وعلى العكس من ذلك تشير وثائق أخرى إلى مرونة السلطة في التعامل مع اليهود، بل إن بعضا منها تؤكد بشكل لا يدع مجالا للشك أنها (أي السلطة) منحت للمتضررين تقديم شكاوى للسلطان أو "النگيد" للتدخل قصد منع التجاوزات أو إيقافها أو تكييفها. فقد كانت الطائفة اليهودية التطوانية إلى حدود ما قبل حرب تطوان تؤدي ألفي مثقال عن كل سنة كضريبة للجزية. واستمر هذا المقدار إلى حدود عام 1864م عندما طلب أفراد الطائفة من السلطان تخفيف مقدار الجزية المفروض عليهم إلى النصف، معللين موقفهم هذا بنقص الإمكانات بعد أن هاجر كبار تجارهم المدينة غداة جلاء القوات الاسبانية عنها سنة 1862م. ووافق السلطان على طلبهم رغم الظروف الاقتصادية الصعبة التي كانت تمر بها الدولة المغربية[37]، ووجه رسالة في الموضوع إلى قائد تطوان آنذاك، جاء فيها: "وبعد وصلنا كتابك مخبرا فيه أنك عزمت على قبض الجزية من أهل الذمة من عامين عملا بأمرنا الصادر بذلك قد أجابوا بالسمع والطاعة غير أنهم طلبوا الرفق بهم في ذلك بالاقتصار على قبض الف مثقال واحد في كل السنة لكونهم كانوا يعطون في كل جزية الفين مثقالا وحيث حصل لهم الضعف ولم يبق تجار كبار يعينونهم على الجزية كعادتهم طلبوا الرفق بهم لما تيقنوا من إيصائنا بهم خيرا فاعلم أنا لا نكلفهم إلا بما يطيقونه وعليه فاقبض منهم الجزية بقدر حالهم الآن والسلام. في 3 قعدة الحرام عام 1280هـ"[38].

وهكذا سينعم يهود تطوان عام 1864م بتخفيض الجزية إلى ألف مثقال، واستمر هذا التخفيض لسنوات، حيث تشير وثيقة أخرى أن القائد "محمد الغفياني" دفع نفس المبلغ المعتاد سنة 1883م لأميني ديوانة تطوان عن ذميي

---

**Néstor Gambetta**, España en África: Estudio sobre la actuación militar de España en su protectorado de marruecos, procedido de una revisión de los tratratados y una semblanza del suelo africano, Lima, 1928, p.31.

فيما يذهب كاسادو رودريكيز إلى القول بأن مبلغ الجزية كان 5 بيسوس:

**Casado Vicente Rodríguez**, Jorge Juan en la corte de Marruecos, Ed. Madrid, Revista General de Marina, 1941, p.14.

37- **عبد العزيز السعود**، تطوان خلال ق.19م: مساهمة في دراسة المجتمع المغربي، مطبعة الحداد يوسف إخوان، تطوان، 1996، ص. 101.

38- **محمد داود**، تاريخ تطوان م6، المطبعة المهدية، تطوان، 1966م، ص. 68.

تطوان وشفشاون[39]. وكان مقابل الجزية - كما هو معلوم- ضمان حرية العقيدة والتنقل والعيش والأمن والاستقرار. لذلك، فقد كان اليهود ينتقلون بكل حرية من مكان إلى آخر داخل المدينة وخارجها دون إبراز أي وثيقة تثبت دفعهم للجزية، وكانت ضمانتهم الوحيدة في ذلك رئيس طائفتهم الذي يملك جردا كاملا بأسماء اليهود الخاضعين للضرائب، وأسماء المستثنين من ذلك، كالعجزة، والفقراء، وغير القادرين على العمل، وغير البالغين. وكانت هذه السجلات جميعها تدفع لبيت المال للرجوع إليها عند جمع الجزية من الطائفة.

ورغم المواقف المتضامنة مع الطائفة اليهودية من قبل السلطة المحلية والساكنة، فإن العلاقات اليهودية المسلمة ستعرف توترا حادا بعد حرب تطوان، لتتحول إلى صراع مباشر بين الطرفين. فمباشرة بعد جلاء القوات الإسبانية بعد الاتفاق بين المخزن واسبانيا على شروط إنهاء الحرب، قام السلطان بتعيين القائد "عبد القادر أشعاش" واليا وكلفه بتسلم السلطة، فاتخذ هذا الأخير سياسة صارمة تجاه هذه الطائفة مغيرا تماما نمط العلاقة الذي كان سائدا فيما قبل، ولم يستثن حتى اليهود المحسوبين على العمل الدبلوماسي، حيث عزل عام 1863م وكيل قنصل فرنسا بمدينة تطوان، وكان يهوديا، ونفاه إلى سلا بذريعة إثارة النعرات مع الأجانب المقيمين بالمدينة، وستتحول السنوات الموالية إلى صراع مستمر بين يهود المدينة، ورموز السلطة.

**خاتمة:**

وكاستنتاج للعلاقات اليهودية مع المسلمين، يمكن القول بأنها تميزت باللين والتعايش المشترك مع احترام الاختلاف الملي والثقافي. وكانت المحن القاسية التي تحدث في فترات الفوضى تنال من المسلمين واليهود على حد سواء. أكثر من ذلك، فإن الذي كان يصيب يهود تطوان لم ينج منه حتى مسلمو المدينة، الذين تعرضوا بدورهم لنفس الويلات وربما أكثر، مثل ما حدث لهم من تضييق أثناء احتلال المدينة من طرف الإسبان عام 1860م (دفعهم ذلك إلى مغادرة المدينة)، وما حدث لهم كذلك من اعتداءات وتقتيل على يد "عيسى الريفي". وبالتالي، فالكتابات

39 - نفسه، ص. 184.

الأوروبية، خاصة كتاب "حوليات يهود تطوان" لسارة ليبوڤيتشي[40]، وغيرها من الكتابات التي ذكرناها أوردت صور نمطية (عبارة عن مسكوكات Stéréotypes) تم تكراها بشكل ميكانيكي دونما تمحيص للسياقات التاريخية، فجاءت في مجملها بعيدة عن واقع الحال، لكونها ظلت قاصرة ومنحازة ومرتكزة على أحكام قيمة مكررة مهملة للتعايش القائم آنذاك بين اليهودي وجاره المسلم، دون تسليط الضوء على كافة المحددات الأساسية النسيج العلائقي والتاريخ المشترك بين الملتين.

وعليه، فإن دراسة علاقات اليهود بالمسلمين تحتاج إلى مراجعة تعيد النظر في حصيلة الأبحاث السابقة بشكل علمي بعيدا عما كرسته الكتابات الاستعمارية (خاصة الفرنسية والإسبانية منها)، التي قامت بالتوظيف السياسي لصالح دمج اليهود ضمن مخطط استعماري يضعف سيادة الدولة.

وإذا كانت علاقات اليهود بالمسلمين قد عرفت مدا وجزرا، فإن مرد ذلك هو طبيعة الحكام المتعاقبين على الحكم من جهة، ومواقف الطائفة من الصراعات الناشئة بين المسلمين فيما بينهم والدول الأجنبية من جهة أخرى.

**المراجع المعتمدة:**


- **شهبر**، كتاب التواريخ: تأليف أحبار من عائلة ابن دنان الغرناطية الفاسية، ترجمة عن العبرية، منشورات جمعية تطاوين أسمير 2002، ص.46.
- **شهبر**، طائفة يهود تطوان خلال القرنين *16* و *17*، تطوان خلال القرنين *16* و *17*، ضمن أعمال ندوة تطوان خلال القرنين 16 و 17 (أيام 9-10-11 مارس 1995)، مطبعة يوسف الحداد إخوان ش.م.م، ضمن منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، تطوان، صص. 210-211.، ص. 99.
- **أحمد بن يحيى الونشريسي**، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقيا والأندلس والمغرب، ج 11، تحت إشراف محمد حجي، بيروت، دار المغرب الإسلامي، 1981م، صص.111-112.


40- غالت سارة ليبوڤيتشي في إظهار الطائفة اليهودية التطوانية على أنها كانت تعيش تحت طائلة الخوف والرعب والترهيب والفقر والمرض، مكررة ما قام بكتابته بعض المؤرخين، كالخلع القسري للنعل، ومنع اليهود من حمل السلاح، وركوب الخيل، وتجميعهم قسرا داخل الملاح، وعدم قبول شهادتهم أمام المحاكم، والحد من تنقلاتهم داخل وخارج الملاح ، وعدم توفير الحراسة والحماية الكافية لهم.

- **جون لوي مييج وامحمد بن عبود ونادية الرزيني**، تطوان الحاضرة الأندلسية المغربية، ترجمة مصطفى غطيس، ط1، 2002، صص.37-36؛
- **أحمد الرهوني**، عمدة الراوين في تاريخ تطاوين، مخطوط المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، ج1، صص. 112-110، وج3، ص.81.
- **محمد بن تاويت**، وثيقة تاريخية عن تطوان، مجلة تطوان (مجلة الأبحاث المغربية الأندلسية)، ع1، 1956م، ص.41.
- **الحسن الوزان**، وصف افريقيا ج 1، تحقيق محمد حجي ومحمد الأخضر، طبعة الرباط 1980م، ص. 219.
- **حاييم الزعفراني**، ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب: تاريخ، ثقافة، دين، ط 1،الدار البيضاء، 1987م، ص.15.
- **كنبيب محمد**، عهد الملاح: مذكرات من التراث المغربي، ع 8 ، سنة 1986م، ص. 127.
- **عبد العزيز السعود** ، تطوان خلال ق.19م: مساهمة في دراسة المجتمع المغربي، مطبعة الحداد يوسف إخوان، تطوان، 1996، ص. 101.
- **داود محمد**، تاريخ تطوان م9، منشورات الخزانة الداودية،1998، ص.124.
- **داود محمد**، تاريخ تطوان م8، المطبعة الملكية، الرباط، 1979م، ص.399.
- **داود محمد**، تاريخ تطوان م6، المطبعة المهدية، تطوان، 1966م، ص. 68.
- **Álvarez Ana María López,** La comunidad judía de Tetuán. Ed. Ministerio de Educación, Cultura y deporte, Dirección General de Bellas Artes y Bienes Culturales, Subdirección General de Museos Estatales, 1 nov. 2003, p.36.
- **Ben-Ami Issachar**, Culte des Saints et pelerinages judeo-musulmans au Maroc, Editions Maisonneuve & Larose, Paris, 1990, p.p 50-225.
- **Chouraqui André**, Histoire des juifs de l'Afrique du nord, Hachette, 1987, p.191.
- **Chouraqui André**, A man alone, Keter Publishing House, Ltd., Jerusalem, 1970, p.4.
- **Cohen Mark R.**, Sociability and the concept of Galut in jewish-muslim relations in the Middle Ages, ***in*** Judaism and Islam: Boundaries, Communications, and Interaction: Essays in honor of William M. Brinner, edited by William M. Brinner, Benjamin H. Hary, John Lewis Hayes, Fred Astren Leiden Brill 2000, p.37.
- **Didier Charles**, Promenade au Maroc, Pari, A. Dupon, 1844, pp. 150-151.
- **Fenton Paul B. et Littman David G.**, L'exil au Maghreb: La condition juive sous l'Islam 1148-1912, Presses de l'Université Paris-Sorbonne, 2010, p.239.

- **Gambetta Néstor**, España en África: Estudio sobre la actuación militar de España en su protectorado de marruecos, procedido de una revisión de los tratratados y una semblanza del suelo africano, Lima, 1928, p.31.
- **Gerber Jane S.**, Jewish society in Fez (1450-1700): Studies in communal and economic life, E. J. Brill, Leiden, the Netherlands, 1980, p.p 75-76.
- **Gottreich Emily**, Jewish and Muslim Space in Morocco's Red City, Indiana University Press,2007,p.12.
- **Laredo, Abraham Isaac**, Bereberes y hebreos en Marruecos. Sus Origines, según las leyendas, tradiciones y fuentes hebraicas antiguas. Introducción de Francisco Cantera Burgos, Madrid, 1954, p.208.
- **Leibovici Sarah**, Chroniques des juifs de Tétouan, Broché, 6 octobre 1995.
- **Levy Simon**, Essais d'Histoire et de Civilisation Judéo-marocaines, Centre Tarik Tarik Ibn Zyad, Novembre 2001, p.108.
- **Menache Sophia**, Communication in the Jewish Diaspora: A survey, *in* Communication in the Jewish Diaspora: The pre-modern world, **Sophia Menache**, E.J. Brill, Leiden, The Netherlands, 1996, p.p 15-59.
- **Park Mungo**, Voyage dans l'intérieur de l'Afrique pendant les années 1795-1797 (traduit de l'anglais par M. l'Abbé Du Voisin), Paris, Treuttel et Wurtz, 1800, p.p 33-34, et p.p 80-155.
- **Rodríguez Casado Vicente**, Jorge Juan en la corte de Marruecos, Ed. Madrid, Revista General de Marina, 1941, p.14.
- **Vilar Juan Bautista**, Tetuán en el resurgimiento judío contemporáneo (1850-1870) approximacion a la historia del Judaismo Norteafricano, Biblioteca popular sefardí, volumen n°2, Ediciones de la asociasion israelita de Venzuela y del centro de estudios sefardíes de Caracas, 1985, p. 37.
- **Vilar Juan Bautista**, Los españoles en la Argelia francesa (1830-1914), Murcia, 1989, p.337.